البحر الأحمر

كطريق تجارى فى عهود البيزنطيين والعرب والمماليك

فى فترة الانتقال بين العصور القديمة والعصور الوسطى ، كانت تجارة الهند والشرق ، تتبع فى وصولها إلى الغرب ، عدة طرق . فكان ينقل جزء منها عن طريق البنجاب وهند وكوش وفارس . وكان الجزء الأكبر من هذه التجارة ، ينقل بحراً إلى فارس ، عن طريق الخليج الفارسى . ثم كان هناك طريق جنوبى ثالث ، ألا وهو طريق البحر الأحمر ومصر .

وكان البيزنطيون يشجعون هذا الطريق الجنوبى ، لمقاومة احتكار أعدائهم الفرس ، لتجارة الهند . وجستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، بعد أن أعاد فتح أفريقيا . أخذ يشجع هذا الطريق . وكان أباطرة بيزنطة يهتمون باستيراد حرير الهند ، لاستخدامه فى أغراض سياسية ، من حيث التأثير به فى البرابرة المغيرين . وكان البيزنطيون يفضلون أن تصلهم تجارة الهند ، عن طريق الأحباش المسيطرين على جنوبى البحر الأحمر ، والذين كانت تربطهم بهم مصالح تجارية مشتركة ، ولم يقتصر نقل متاجر الهند ووسط أفريقيا على الأحباش ، بل كان البيزنطيون يرسلون سفنهم جنوباً ؛ وكان هناك موظف بيزنطى logothète ، مهمته القيام برحلة سنوية لجلب متاجر الهند ، عن طريق البحر الأحمر . وكان العرب والهنود أحياناً ، يشتركون فى هذا النقل .

وكانت المتاجر الهندية تفرغ فى عدة موانى بيزنطية . ففى الشمال كانت تفرغ فى القلزم ، بعد أن تدفع الضرائب الجمركية عند جزيرة Jotabe . ثم كانت تنقل المتاجر ، بواسطة القناة التى تصل القلزم بالنيل ، والتى وجدت منذ عهد الفراعنة ، وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، والتى كانت لا تزال موجودة ، على الأقل ، إلى أوائل القرن السادس للميلاد . وفى الأوقات التى

كانت تردم فيها أجزاء من هذه القناة ، كانت تنقل المتاجر على ظهور الإبل وعند وصولها إلى النيل ، تحمل حتى البحر الأبيض المتوسط . وكذلك كان جزء آخر من متاجر الشرق ، يفرغ فى ميناء Berenice القديمة ، والتى ظلت محتفظة بأهميتها التجارية ، إلى القرن الرابع الميلادى على الأقل . وكانت تنقل منها المتاجر براً . حتى تصل إلى إقليم طيبة ، ومنها تحمل فى النيل حتى الاسكندرية

* * *

وفى القرن السابع الميلاد ظهرت دولة العرب ، واصطدمت بالروم . واستولى عمرو بن العاص على مصر . وما أن استتب له الأمر بها ، حتى أخذ يفكر فى تنفيذ بعض المشروعات لتحسين أحوال البلاد . فاقترح على الخليفة عمر بن الخطاب حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط مباشرة . ولكن عمر رفض ، خشية استخدام الروم هذه القناة فى أغراض عسكرية ضد دولة العرب .

ثم حدث بعض الجدب بجزيرة العرب ، فطلب الخليفة إلى عمرو إعادة حفر القناة القديمة ، التى كانت تصل القلزم بالنيل ، مارة بالبحيرات المرة وبوادى الطميلات ، لارسال القمح إلى الحجاز ، سنة ٦٤٣ م . واستفادت التجارة من هذه القناة . فأخذت متاجر الهند تعبر إليها من البحر الأحمر ، وتصل إلى النيل فالاسكندرية . وأخذت تعرف باسم خليج أمير المؤمنين . ولم تستمر هذه القناة مفتوحة للتجارة ؛ بل أخذ الرمل يردم بعض أجزائها ، فى أوائل القرن الثامن للميلاد . وفى سنة ٧٦١ م ، أمر أبو جعفر المنصور بردمها ، لمنع وصول المدد إلى بعض الثوار بالحجاز . ولكن ردم القناة لم يوقف تيار التجارة ؛ وأصبحت متاجر الهند ، التى كانت تتجمع فى عدن وجدة ، تنقل فى البحر الأحمر إلى القلزم ، ومنها تحمل براً وبحراً إلى الإسكندرية . وفى ذلك العصر كان ينقل جزء من المتاجر الهندية ، من القلزم شمالا إلى الفرما ، فى موضع Péluse القديمة .

وشارلمان كان يشجع تجارة الشرق . وأرسل سفارة إلى هارون الرشيد لهـــذا الغرض . وعندما أصبح امبراطوراً سنة ٨٠٠ م ، زادت علاقاته بالأراضى المقدسة ، وأوجد علاقات تجارية منتظمة بين فرنسا والشرق . ويقال إن هارون الرشيد ، قد فكر أيضاً فى إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، ولكنه خشى العواقب الحربية والسياسية ، التى قد تترتب على ذلك . وفى عهد خلفاء شارلمان ، أصاب التجارة عامة ، فترة تأخر ؛ ونال تجارة الهند نصيب من ذلك . إلا أنها عادت إلى الازدهار ، كما نجد فى عهد الطولونيين (٨٧١ — ٩٠٤ م)

* * *

ولقد كان استقرار الصليبيين فى الشام وفلسطين ، داعياً لأن تقف مصر نحوهم موقف العداء . واستمر النضال زمناً طويلا . وكان غرض الصليبيين الأساسى القضاء على قوة مصر الحربية . وكان الرأى السائد هو قطع التجارة بين أوروبا ومصر ، لحرمان مصر من المواد الأولية الضرورية للحرب ، مثل الأسلحة والحديد والخشب . وصدرت فى فترات مختلفة قوانين من جانب البابا والحكومات الأوربية ، لمنع توريد تلك الأصناف إلى مصر . ومن الناحية الأخرى ،كان سلطان مصر إذا رحب بالتجارة الأوربية فانه يخالف شعوره الدينى والوطنى ، فنجد إذاً أنه قد وجدت لدى الجانبين ، المصرى والأوربى ، العوامل التى تساعد على إيقاف التجارة بين الهند وأوروبا ، عن طريق البحر الأحمر ومصر . وفعلا نقصت هذه التجارة فى بعض الفترات . إلا أن هذا لم يكن القاعدة العامة . فتغلب على عوامل المنع ، الرغبة المشتركة بين مصر وأوروبا ، فى عدم سد باب وفير للربح من التجارة . ولم تحل القوانين البابوية دون استمرار التجـــارة . فبيزا عقدت معاهدة تجارية مع مصر سنة ١١٧٣ ، وبمقتضاها تعهدت بارسال الأسلحة . والبندقية لم تستطع إيقاف تجارتها مع مصر ، واكتفت بتنفيذ القوانين البابوية المتعلقة بمنع إرسال

الأسلحة والذخائر الحربية . وعلى العكس نجد أن الحروب الصليبية ، باستثناء فترات معينة ، كانت من العوامل الفعالة فى سبيل إنعاش تجارة مصر وأوروبا ، أو بالأحرى تجارة الهند وأوروبا . وأصبحت موانى مصر على البحر الأبيض المتوسط تعج بالتجار ، حتى ان رسول فردريك باربا روسا إلى مصر ، قد أدهشته الحركة التجارة فى الاسكندرية ، فى سنة ١١٧٥

والحروب الصليبية قد أحدثت تغييراً محلياً فى سير التجارة فى البحر الأحمر . فسيطرة الصليبيين على الشام وعلى طريق الحج البرى ، قد دفعت التجارة والحجاج إلى سلوك طريق جنوبى . فكانت تجارة الهند المتجمعة فى عدن تنقل بواسطة العرب والمصريين والهنود إلى ميناء عيذاب ؛ ومنها تحمل المتاجر على ظهور الجمال إلى قوص ، التى أصبحت مركزاً تجارياً عظيم الأهمية وكانت المسافة بين عيذاب وقوص تستغرق من ١٧ إلى ٢٠ يوماً . ومن قوص كانت تحمل المتاجر فى النيل إلى دمياط ورشيد . والملاحظ أنه كان محرماً على تجار الغرب الوصول إلى البحر الأحمر . وكان السلطان يراقب سواحله للحيلولة دون إفلات بعضهم ، وذلك خشية تآمر الأوروبيين مع الأحباش مثلا ضد مصر ؛ والسبب الأساسى هو احتكار المصريين أو المسلمين عملية نقل التجارة .

وطريق عيذاب — قوص أخذ يفقد أهميته التجارية منذ ١٣٧٨ . فبعد أن هدأت الظروف فى فلسطين وسوريا ، أعاد صلاح الدين بن كرّم تجديد ميناء الطور القديمة ؛ ويروى بعض الرحالة الايطاليين نبأ هـــذا التحول . وأخذت تفرغ متاجر الهند فى الطور ، ثم تنقل بطريق القوافل ، وتمر أمام دير القديسة كترين ، وتحمل إلى مصر أو إلى الشام . وكذلك أخذت عدن تفقد أهميتها . وسبب ذلك أن أمير اليمن أخذ يحاول نقل متاجر الهند بطريق القوافل المارة ببلاده ، وسعى للحيلولة دون انتقالها إلى مصر . فساء هذا الهنود ، ونقلوا مركزهم من عدن إلى جدة سنة ١٤٢٤ ، التى كان قد

استولى عليها منذ قليل ، سلطان مصر ، الملك الأشرف برسباى ؛ ورحب السلطان بهذا الانتقال . وأخذت سفن الهند تتقاطر إلى جدة . وكانت البضائع الخفيفة تنقل بطريق القوافل إلى مكة ، وتصل مصر بعد مسيرة ٣٠ يوماً . والبضائع الثقيلة كانت تنقل فى البحر الأحمر إلى ميناء الطور . وفى ذلك العهد نجد أيضاً ميناء السويس إلى جانب الطور ، ولكنها كانت ميناء لانشاء السفن أكثر منها ميناء تجاريا .

ولنعرض الآن لمقارنة موجزة بين متاجر الشرق والغرب . فلقد كانت أهم متاجر الهند ووسط أفريقيا التى تعبر البحر الأحمر إلى مصر فأوروبا ، هى التوابل كالفلفل والمسك والقرفة والكافور ، ثم خشب الأبنوس والعاج والحرير واللآلىء والأحجار الكريمة ، وكان الفلفل للاسكندرية فى العصور الوسطى ، بمثابة القطن والشاى معاً بالنسبة لانجلترا فى الوقت الحاضر .

وكان يصل مصر من أوربا الخشب والحديد والنحاس والزيت والشمع والزبيب والفراء والأجواخ والمنسوجات والمصنوعات الحديدية والفضية والبللورية . وكان يرسل جزء كبير من هذه الواردات إلى الحبشة والهند عن طريق البحر الأحمر . وفى أى جانب كان الربح ؟ فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان يدفع تجار الغرب سنويا نحواً من ٣٠٠,٠٠٠ من الدوكات ، ثمناً لمتاجر الهند ، وهذا غير ما كانوا يرسلونه إلى مصر من المنتجات والمصنوعات الأوروبية على سبيل المقايضة . وكانت تدفع متاجر الهند أولا فى جدة ضريبة حوالى ١٥ ٪ ؛ وكذلك كانت قيمة الضريبة فى الطور ، وفى القاهرة ، وفى الاسكندرية . وهذا غير ضرائب أخرى خاصة بالسلطان ، فضلا عما كان يتعرض له التجار من المغارم . وكان يبلغ ثمن متاجر الهند فى أوروبا أضعاف قيمتها فى الهند .

* * *

وارتفاع أسعار متاجر الهند ، بسبب احتكار مصر والبندقية ، كان

من العوامل التى حفزت البرتغال للبحث عن طريق آخر للهند ، فى عصر سادت فيه حركة الكشف الجغرافى . ففى سنة ١٤٨٧ وصل بارتلميو دياز إلى رأس الرجاء الصالح ؛ وفى سنة ١٤٩٨ وصل فاسكودى جاما إلى كاليكوت ثم وصل كبرال بأسطولهم إلى الهند فى سنة ١٥٠٠ ، واصطدم بالمصريين ، وضرب أسطولهم التجارى فى كاليكوت . ثم أخذ البرتغال يسعون فى قطع التجارة بين مصر وساحل ملبار .

ووصول البرتغال إلى الهند قد أقلق مصر والبندقية . فبعثت البندقية عدة رسل (١٥٠٢ — ١٥٠٤) ، إلى سلطان مصر ، وقدمت إليه مقترحات ، يقال إنها عرضت عليه حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ؛ ثم اقترحت أن يرسل الغورى بعثة إلى الهند ، لحفظ وتنمية العلاقات التجارية مع مصر ، ولإقناع أمراء الهند باقفال موانيهم أمام البرتغال ، الذين إذا تركوا يتغلغلون فى البلاد ، سينتهون بالاستيلاء على الهند . ثم اقترحت البندقية أيضاً أن يجلب الغورى كميات كبيرة من التوابل بثمن أقل ، واقترحت تخفيض الضرائب الجمركية ، حتى يستطيع البنادقة منافسة البرتغال . ولكن الغورى لم يعبأ بهذه المقترحات ، واكتفى بأن أوصى بصنع بعض السفن الحربية فى الهند لكى يقاوم بها البرتغال . ثم بعث رسولا إلى أوروبا لكى يسعى ، عن طريق المفاوضات ، لإيقاف تقدمهم فى الهند ولكن البندقية لم تستمع إليه ، وكانت ترغب فى أن تبقى سراً مساعيها ضد البرتغال . ورسول الغورى هدد البابا بهدم قبر المسيح وبالتنكيل بالمسيحيين فى أملاك سلطان مصر ؛ فأثار هذا التهديد حنق البابا ؛ وهدد ملك البرتغال باحتلال مكة . وبعد قليل رأت البندقية أن تعقد معاهدة مع السلطان فى سنة ١٥٠٧ ، تعهدت فيها بأخذ كمية معينة سنوياً ، من متاجر الهند فى الأسكندرية .

ولقد حاول المصريون والعرب الوصول إلى الهند بالاتجاه جنوباً نحو سيلان ، تجنباً للاصطدام بأسطول البرتغال . ولكن البرتغاليين احتلوا جزيرة سقطرى

سنة ١٥٠٦ ، وبذلك ضيقوا الحصار على مخرج البحر الأحمر . وكان لمصر إذ ذاك نفوذ فى الحجاز ؛ وكان الغورى يتدخل فى المنازعات الداخلية بين أمرائه ؛ وكانت لمصر قاعدة بحرية فى جدة . أما اليمن وسواكن ودحلق ومصوع لم تكن خاضعة للنفوذ المصرى ؛ وكان يخشى أن تكون هذه الأماكن مراكز عدائية لمصر . وكان الغورى إلى ذلك الوقت قد تغاضى عن اعتداءات البرتغال ضد رعاياه فى المحيط الهندى . وأخيراً رأى وجوب الالتجاء إلى القوة ، فأخذ يعد حملة بحرية ضد البرتغال ؛ وساعده البندقة سراً . وخرج الأسطول المصرى من السويس ، وعدته ٥٠ سفينة ، بقيادة الأمير حسين الكردى ، ورسى فى جدة سنة ١٥٠٧ ؛ ثم اجتاز بوغاز باب المندب ، ومنه اتجه إلى جزيرة ديو ، التى كانت من أملاك مظفر شاه الخوارزمى عدو البرتغال ؛ فأحسن استقبال الأسطول المصرى . وفاجأ المصريون أسطول الميدا الصغير ؛ وبعد معركة حامية تمكنوا من هزيمته فى يناير سنة ١٥٠٨ . وبالرغم من الخلاف الذى نشب بين الميدا نائب الملك فى الهند والبوكيرك ، فان المصريين لم ينتهزوا الفرصة لتوجيه الضربة الثانية ضد البرتغال . فاستطاع الميدا أن يجمع قواته ، وأن يشتبك بالأسطول المصرى عند ديو أيضاً ، وتمكن من تحطيمه فى فبراير سنة ١٥٠٩ . ولجأت بقايا الأسطول المصرى إلى سواحل جدة ؛ ولم يجرؤ الأمير حسين على الرجوع إلى مصر .

وماذا كان موقف البندقية إزاء تلك الحوادث ؟ ولماذا لم يذهب البنادقة إلى لشبونة من أول الأمر ؟ نجد أن ظروف البندقية فى أوربا لم تكن تمكنها من مساعدة الغورى جدياً ضد البرتغال . فقد كانت تواجه حرب حلف كمبراى ؛ وكانت تحاول أن تخفى مساعداتها لمصر . وكانت فلورنسا والبرتغال تتهمانها بمساعدة مصر حربياً . ولم يكن من مصلحة البندقية أن تضم البرتغال إلى جبهة الأعداء . ومن ناحية أخرى نجد أن البنادقة لم يذهبوا أول الأمر إلى لشبونة أولا لأن طريق رأس الرجاء الصالح كان طويلا جداً ؛ وثانياً

لأن البرتقال كانت ترحب بقدوم البنادقة إلى لشبونة . ولكنها كانت لا تقبل اشتراكهم فى السفر إلى الهند ؛ وثالثاً لأن قوة البندقية البحرية كانت قد ضعفت ، ولم يكن من مصلحتها تشتيت قوتها البحرية فيما وراء البحار ، وأمامها الخطر العثمانى ، وأخيراً لأن البنادقة إذا ذهبوا إلى لشبونة أثاروا غضب السكان ، وأضاعوا ما بقى لهم من تجارة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

وبعد موقعة ديو أخذ الغورى يعد أسطولا ثانيا ، وطلب امداداً فى البندقية ؛ ولكنها لم تشأ أن تتورط ، وأشارت عليه بالاتجاه إلى السلطان العثمانى . فوعد بايزيد بالمساعدة ولكن أعداء مصر لم يكونوا غافلين عن هذه الحركات ، فخرجت سفن فرسان القديس يوحنا من رودس بأمر قائد برتغالى ، وحطمت السفن المصريه التركية بالقرب من الاسكندرية فى صيف سنة ١٥١٠ . فحنق الغورى ، وقبض على القناصل والتجار والرعايا الأجانب ، وفى مقدمتهم البنادقه . ولم تحل مشاغل البندقية فى ايطاليا دون اهتمامها بتجارة الشرق ، ومنافسة الفرنسيين للحصول على المقام الأول فى تجارة الشرق ، قد جعل البندقية تدرك حرج الموقف ، ووجدت أنه من الضرورى إرسال أحد أعضاء مجلس السناتو Trevisani ، سفيراً إلى الغورى فى مايو سنة ١٥١٢ . فأمكنه إقناع السلطان باطلاق سراح الأسرى ؛ وأخذ يزيل ما علق بنفسه من وشايات المنافسين ؛ وذكر أن البندقية كان فى استطاعتها الذهاب إلى لشبونة لأخذ متاجر الهند ، ولكنها كانت تحرص على تنفيذ اتفاقية سنة ١٥٠٧ . وفى سنة ١٥١٤ قررت البندقية إعفاء تجار الفلفل من الضرائب البلدية ؛ وكانت تأمل أن يحذو الغورى حذوها

وكان نفوذ البرتغاليين قد ازداد فى الشرق ؛ فاستولوا على goa فى سنة ١٥١٠ ، وطردوا منها تجار العرب . ولكن عدن صدتهم فى سنة ١٥١٣ ، فأرسل الغورى يهيء أمير اليمن الطاهرى ، ونشط فى إعداد أسطوله الجديد

المكون من ٦٠ سفينة و ٦٠٠٠ من الرجال ، وأعطى قيادته للريس سليمان . ووصلت هذه القوة إلى جدة ، ثم إلى جزيرة قمران ، فى يوليو سنة ١٥١٥ . ولكن الأسطول المصرى انحرف عن الغرض الاساسى من هـذه الحملة ، واتجه إلى مهاجمة اليمن . وسواء كان هـذا الهجوم تلكؤاً من جانب الحملة المصرية ، وتهيبا من ملاقاة البرتغال ، أو كان القصد منه الاستيلاء على قواعد بحرية لازمة لتموين الأسطول المصرى، فان الحملة المصرية قد استمرت فى التوغل فى اليمن ، واستفادت من النزاع الداخلى فى البلاد . فاستولى المصريون على الحديدة وصنعاء ؛ ولكن عدن تمكنت من المقاومة ، وفى تلك الأثناء وصلت الأخبار بهزيمة الغورى وقتله ، وبتقدم العثمانيين فى سوريا ومصر سنة ١٥١٧ . فوقفت مشروعات المصريين فى البحر الاحمر والمحيط الهندى .

وأخيراً لم يقو البنادقة على مقاومة طريق البرتغال ، واضطروا إلى اتباع التيار الجديد . فاتجه فريق من تجارهم إلى اشبونة لأخذ متاجر الهند ، وفى الوقت نفسه احتفظت البندقية بما بقى لها من تجارة مع مصر ، وتمتعت فى عهد العثمانيين بما تمتعت به فى عهد المماليك . فرأت أن من الصواب الجمع بين الطريقين : اشبونة والاسكندرية

نستخلص من هذا ، أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، قد أصاب تجارة الشرق ، عن طريق البحر الاحمر ومصر ، بضربة قوية ، فهبطت هذه التجارة ، وانتقل مركزهـا من الاسكندرية إلى اشبونة . ولم يكن ليعيد إلى هذا الطريق القديم أهميته ، إلا فتح قناة تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط . ولقد وجدت عدة محاولات ، أثناء القرن السادس عشر ، لحفر قناة تصل البحرين . ففى عهد سليمان القانونى فكر العثمانيون فى حفر القناة ، سنة ١٥٢٩ . وسنان باشا فاتح اليمن ، حاول حفر هذه القناة ، لكى يسهل أعماله الحربية فى البحر الأحمر ، سنه ١٥٦٩ . والبابا سكستوس الخامس

(١٥٨٥ — ١٥٩٠) كان يحبذ فكرة الاستيلاء على الاسكندرية ، وشق قناة تصل البحرين . وكذلك حاول السلطان مراد الثالث حفر القناة ، وخصص لذلك ١٠٠,٠٠٠ عامل ، سنة ١٥٨٦ . ثم جرت محاولات أخرى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر لحفر القناة ، ولكنها بقيت مجرد مشروعات . وتأخر تنفيذ مشروع إيصال البحر الأحمر بالبحر الابيض المتوسط إلى عهد إسماعيل ؟

حسن عثمان

المراجع

أبو الفدا : تاريخ الملك المؤيد القسطنطينية ، ١٢٨٦ هـ

المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٣٢٥هـ

Battistella, A. = La Repubblica di Venezia ne'suoi undici secoli di storia. Venezia, 1921

Charles-Roux, J. = L'Isthme et le Canal de Suez. 2 vols. Paris, 1901.

Heyd, W. = Histoire du Commerce du Levant au moyen âge. 2 vols. Leipzig, 1923.

Kammerer, A. = La mer Rouge, L'abyssinie et L'Arabie depuis L'Antiquité. 2 vols. Le Caire, 1935.

Müller, G. = Documenti degli archivi Toscani, sulle relazioni delle città Toscane coll' - Oriente Cristianoe coi Turchi fino al 1531. Firenze. 1874.

Quatremère, Et. = Mémoires sur L'Égypte. 2 vols. Paris, 1811.